وهكذا مع نهاية عام ١٩٨٢، يمكن القول، بتحفظ، أن السيرورة التي بدأت في سنوات الأربعينات قد تأطرت صيرورة قطرية في المنطقة العربية كدول ما بقي جامعاً لها هو ارتباط مصالحها القطرية، وليس ما تدعيه من مصالح قومية، ولا أدل على ذلك من الموقف حيال القضية الفلسطينية.

فهل كانت الجماهير العربية مع هذا المسار؟ وإذا لم تكن معه، ماذا فعلت لتعطيله؟

ملاحظات قيد الدرس

إن المتتبع للأدب السياسي العربي، منذ بدأت التشكيلات السياسية المنظمة بالظهور، يلحظ أن ما من منشور سياسي أو بيان أو خطاب أو مقالة إلا وللجماهير فيها من الكلمات والأوصاف والمهام ما يفوق إمكانية الحصر. لكن المتتبع أيضاً لتلك البنى السياسية يلحظ أمرين:

١ ــ ان الجماهير كانت بالنسبة للنخبة السياسية التقليدية، التي صارعت الاستعمار، صوتاً انتخابياً تبحث عنه في معركة الانتخابات، وذلك حين كانت في الأقطار العربية بعض الديمقراطية.

٢ ــ إن الجماهير بالنسبة للنخب السياسية، التي انتظمت على أساس أيديولوجي، كانت كلمة تتردد في الأدب السياسي دون أن يصل الأمر إلى التفاعل بين تلك النخب والجماهير وإشراك الأخيرة في الصراع السياسي ــ الاجتماعي ــ الوطني.

وقد يذهب البعض في تعليله لذلك إلى القول أن الأمية سبب هذه الشرخ بين النخبة والجماهير، حيث ما زالت الأمية في الوطن العربي مع نهاية القرن العشرين تزيد عن الـ ٦٥٪ كمعدل وسطي عام. لكن هذا التعليل ساقط، إذا تناولنا دور النخبة في المجتمع من منظور مغاير للمنظور الذي رأت نفسها فيه.

في ضوء الملاحظة السابقة، تعاملت النخبة مع الجماهير من فوق. فتلك النخبة بدأت نشاطها السياسي من الأيديولوجيا وليس من الواقع، فكانت تعاليمها قرآناً لا إله له، وكانت ممارساتها لا يأتيها الباطل دون أن تكون أنبياء. ولم يجد بعض منها وسيلة لتحقيق أحلامه سوى اعتماد الانقلابية العسكرية، وعندما وصلت للسلطة، عبر هذه الوسيلة، لم تجد أسلوباً لاستمرارها سوى الديكتاتورية.

في ضوء ذلك، أي في ضوء الابعاد القسرى للجماهير عن المشاركة السياسية، يصبح من الخطل بمكان تحميلها مسؤولية انعدام ظهور موقف لها حيال ما جرى وما يجري بالنسبة للقضية الفلسطينية، وغيرها من القضايا، حيث يلاحظ أنها ممنوعة عن التعبير حتى عن قضاياها المباشرة اللصيقة بها والتي تطال حياتها اليومية، بدءاً من القمع، وانتهاء بالخبز، فكيف بإمكانية الفرصة للتعبير عن مواقف حيال قضايا قومية تعمل الأنظمة بكل ما تملكه من وسائل لإعدامها من الذاكرة الشعبية.

ثم إن ديناميكية صياغة الموقف الجماهيري، في غياب دور النخبة، أو شلله، يخضع لآلية مختلفة عن الآلية التي تركب النخبة فيها موقفها. فآلية الموقف الجماهيري تتركب خلال زمن طويل نسبياً يقتضي توفر قاسم مشترك عام لرد الفعل